مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

المجلد 08 / العـدد: 01افريل (2024)، ص ص.91- 101.

الوثائق على قشرة البتولة لنفجرود

The Documents on the bark of birch of Novgorod)

زكية كربال*

جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله ، الجزائر، قسم التاريخ

Histoireeduc@gmail.com

تاريخ الاستلام: 30./.12./.2022 تاريخ القبول: 23./.03./.2024

● **الملخص:**

هذا المقال ترجمة –بتصـرّف– مرفق بهوامش إضـافية. لدراسـة قيّمة بعنوان "الوثائق على قشـرة البتولة لنفجرود" أنجزها فلاديمير فودوف أحد فطاحل المؤرخين مختص في تاريخ روسيا في العصور الوسطى.

يعتبر ظهور الكتابة محطّة فارقة في التطوّر البشـري. إنها سمحت لمختلف الشـعوب بتسـجيل انشـغالاتها واهتماماتها. في هذا السـياق، الروس الصقالبة كغيرهم من الشعوب الأخرى قد أوجدوا كتابة ميّزتهم عن غيرهم تمثلت في استعمال قشرة البتولة كأداة أساسية لتدوين عديد الأحداث المتعلقة بشؤونهم المختلفة.

عام 1951م، فإن فريقا هاما من الأثريين قام باكتشـاف عدد معتبر من الوثائق مكتوبة على هذه المادة الطبيعية وقد حملت في ثناياها معلومة ثمينة عن الروس في مختلف الفترات التي تناولتها الوثائق.

إضـافة إلى هذه الأهمية، فإن الوثائق على قشـرة البتولة تمدّنا بفكرة واضـحة عن مسـتوى التعليم في روسـيا خلال العصـور الوسـطى وكذلك، الشرائح الاجتماعية المختلفة التي كانت تحظى بالتعليم آنذاك.

كلمات مفتاحية: نفجرود.، وسيا في العصور الوسطى.، قشرة البتولة.، الكتابة.، التعليم في العصور الوسطى.

Abstract:

This is a translated article with summarized reading and additional notes about an important study entitled: “The documents on bark of birch of Novgorod” written by Vladimir Wodoff, a famous historian spicialised in the history of Russia in the middle ages.

Actually, writing is a considerable and decisive evolution in the history of humanity. It permitted to different people to record their preoccupations and concerns. The Russian slavs like other people have their own writings which characterized them as “writing on bark of birch”.

In 1951 a group of archeologists discovered a number of documents about bark of birch adding other informations about the Russian slavs during their period.

In addition to that, the Importance of those documents was on providing an idea concerning the instruction level in Russia during the middle ages, and the different classes of the society who had the right to study.

Keywords:

Novgorod- Russia in the middle ages, The bark of birch, writing- Instruction in the middle ages.

* دة **زكية كربال**

مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

المجلد 08 / العـدد: 01افريل (2024)، ص ص.91- .101

- **مقدمة:**

حقق الإنسان في مختلف الأطوار التي مرّ بها مكاسب مختلفة مسّت عديد مجالات حياته، لعل أهمّها على الإطلاق اكتشافه الغير مسبوق لأداة سجّل من خلالها يومياته، انشغالاته وتطلعاته، إن الأمر يتعلّق هنا بالكتابة التي يعد ظهورها ثورة حقيقية في تاريخ البشرية.

يعد ظهور الكتابة حدثا بالغ الأهمية، إذ لم يكن الأمر يقتصر على تسجيل أحداث محلية ضيقة فحسب، بل إن هذه الوسيلة قد مكّنت الروائيين وكتاب آخرين بصفة عامة من تتبع الخطوات المختلفة التي مرّ بها جنس بشري محدّد.

وباعتبار الروس واحدة من هذه الأجناس البشرية التي أسست لحضارة ميّزتها عن غيرها، فإنهم أوجدوا نمطا من الكتابة باستعمال قشرة شجرة البتولة والتي كانت منتشرة بكثرة في روسيا خلال فترة العصور الوسطى. ولمعالجة الموضوع فإن مجموعة من الاشكالات تفرض على الباحث الخوض فيها وهي:

- متى استخدمت قشرة البتولة كأداة للكتابة؟
- لماذا تمّ استخدام قشرة البتولة دون غيرها؟
- ما هو سبب وفرة هذه الوثائق في نفجرود دون مدن أخرى؟

1. الاكتشاف الأثري لعام 1951م

إن الوثائق المكتوبة لا تشكّل إلاّ جزءا من الاكتشافات التي قامت بها فرقة الأثريين التي يديرها أرسيخوفسكج. لقد أمدّتهم أرض نفجرود بكمية كبيرة من الأدوات الخاصة بالحياة العادية: مجوهرات، أدوات الحرفيين، أختام. كل هذه القطع كانت موجودة متناثرة وسط أركان –تقريبا– دوما من الخشب، منازل وبلط من الخشب أيضا، شوارع (...).

ومن أجل إبراز أهمية الاكتشاف الذي تمّ في نفجرود، يجب علينا التذكير بإيجاز بالعناصر التي بحوزتنا حول استعمال قشرة الخشب، كمادة ذاتية في روسيا وأماكن أخرى. إن استعمال قشرة الخشب، من الزيزفون tilleul أساسا، التي شهدتها بكثرة الفترة القديمة الإغريقية–الرومانية، لكن النصوص التي وصلتنا قد كتبت إمّا على ألواح مغطاة بالشمع –إيصالات بومباي[1] Pompéi–، أو تم تحريرها بالحبر–لواحات ألبرتيني Albertini. إنه إذن من الصعب إيجاد جذور التقنية المستعملة في نفجرود أين كانت الحروف منقوشة على القشرة العارية. إن أقدم شهادة عم

[1]– اسمه باللغة اللاتينية كناووس بومبيوس Cnneus Pompeius Magnus الملقب بالعظيم Magnus، ولد عام 106 ق.م وتوفي في مدينة بلوز Péluse – الواقعة في مصر عام 48ق.م– قائدا ورجل دولة روماني شهير وقف بومبي إلى جانب سيلا Sylla في حربه ضد ماريوس Marius، ونظير خدماته كافأه بمنحه لقب "العظيم". قام بومبي عام 77ق.م حربا ضارية في اسبانيا ضد القائد المتمرّد سوتوريوس Sertorius، وقد تمكّن بومبي من إحراز النصر عليه، ليعيد عقب ذلك إقرار الأمن والاستقرار في المنطقة. لم يتوقف هذا القائد الروماني عند هذا الحد،بل إنه حقق انتصارا باهرا آخر عام 73ق.م على الملك مثردات السادس Mithridate VI الذي كان قد بسط نفوذه في منطقة آسيا الصغرى، وعقب هزيمة هذا الأخير، لجأ إلى منطقة القرم وتوفي هناك عام 63ق.م.
وبفضل هذه المكاسب، تمكّن بومبي من توسيع حدود الأراضي الرومانية إبان العهد الجمهوري، إضافة إلى ذلك عمل جاهدا على زيادة مداخيل الدولة.أنظر:

Monnier –Jean- Pacaut –Marcel- histoire. Rome- le Moyen-Age jusqu'au XIVe siècle- Fernand Nathan- S/D- PP 80/81

S-Carre –Chris- Atlas de la Rome antique 800 av.J.- C.-, 540 apr. J.-C- édition Autrement-1995,PP18-19,28,32-34

هذه التقنية، ربّما قدّمها ابن النديم الذي، خلال عامي 987-988م، قد سمع يقال بأن الروسي "Rusy" كانت لهم كتابات "مقطعة على الخشب" وقد رأى بنفسه "قطعة من الخشب الأبيض [البتولة؟] التي كانت تحمل إشارات: لا أعرف، يضيف الكاتب العربي، هل تعلق الأمر بكلمات أو حروف معزولة".

وخارج هذه الشهادة، الغامضة جدّا، لا نملك شيئا بالنسبة لروسيا، حتى القرن السادس عشر الميلادي، حينما أعلمنا جوزيف Joseph، رئيس دير فلوكولمسك Volokolamsk بأن رهبان دير الثالوث المقدّس للقديس سيرج[2] Trinité- Saint- Serge " يمارسون (...) فقرا و (...) رفضا للثروات حتى أن، في طائفة السعيد جدّا سيرج (تـ. 1392م)، فإن الكتب نفسها لم تكن تكتب على الرّق، لكن على قشرات البتولة". نشير إلى أن جوزيف يعتبر قشرة البتولة كمادة رخيصة الثمن مقارنة بالرّق. لكن، بالمقابل لا يقول لنا إن كان الرهبان يكتبون أم ينقشون الإشارات على هذه القشرات.

إذا تحوّلنا إلى الدول المجاورة لروسيا، نجد شهادة الكاتب السويدي ألوس ماجنوس Olaus Magnus (ق.16م) الذي عزا إلى قشرة البتولة خاصية مقاومة التقلّبات الجوّية، ما يبرز أن الحروف لم تكن مكتوبة بالحبر، لكن منقوشة.

كيف يفسّر هذا العدد القليل من الشهادات المكتوبة عن استعمال قشرة البتولة؟ من أجل محاولة الإجابة عن هذا السؤال –في الميدان الروسي على الأقل– يجب علينا رؤية كيف كانت هذه القشرات من البتولة يشار إليها في النصوص ذاتها التي تحتوي عليها. نجد في وثيقتين (رقمي27و 40) عبارة برستو Beresto (والتي يجب قراءتها برست Berest حسب السيدة زكوفسكاجا Mme Zakovskaja (L.P.)،بالروسية الحديثة برستا Beresta) وتعني باللّغة الروسية القديمة قشرة البتولة بشكل عام، والمستعمل هنا بمعنى أكثر دقة "كتابة على قشرة البتولة".

لكن، في أغلب الأحيان، فإن هذه الكتابات كان يشار إليها بجراموتا Gramota أو أسماء تصغي جراموتكا Gramotka (رقم 24) وجراموتيكا Gramotica (رقم 424). في الوثائق ذات الأرقام 43، 109، 181، 364، فإن استعمال هذه الكلمات من أجل الإشارة إلى المكتوب على قشرة البتولة لا ينتابه أدنى شك، بما أن الأمر يتعلّق بالوثيقة نفسها (مثلا، في الرقم 43 "ما إن تتلقى هذه جراموتا...") (...) في أحيان كثيرة، فإن المرسل يطلب من المرسل إليه أن يجيبه بالجراموتا (...)

أمام قلّة المعلومات التي تزوّدنا بها المصادر الروائية، وحده علم الآثار يمكنه أن يمدّنا بإشارات عن استعمال قشرة البتولة كدعامة الكتابة، لكن، هنا أيضا، فإن إمكانيات التحقيق محدودة بعوامل جغرافية ومناخية: نوعا من رطوبة الأرض هي في الواقع ضرورية من أجل السماح بالمحافظة

---

[2]– أسسه الراهب سيرج من رادوناج Serge de Radonége.

اسمه المدني بارثولمي Bartholémy – يعد أحد ألمع الشخصيات الدينية في روسيا خلال القرن الرابع عشر الميلادي. يرجح أن تاريخ ميلاده كان بين 1314و 1322م، أما وفاته فكانت يوم 25 سبتمبر عام 1392م. ينتمي سيرج إلى أسرة ثرية تقيم في إمارة روستوف Rostov والده مالك لأراضي شاسعة اشتهرت بإنتاج مادة الملح. ارتبط اسم سيرج بأحد أبرز الأديرة في روسيا واسمه "الثالوث المقدس للقديس سيرج" La trinité Saint-Serge الواقع شمالي–شرق موسكو على بعد سبعين أو ثمانين كيلومترا منها. وإن أهم المبادئ التي قام على أساسها هذا الدير هو الخضوع التام لمقدّم الدير، وإقرار الملكية الجماعية للرهبان.أنظر:

The vita of St. Sergii of Rondongh, translation, introduction, notes by -Klimenko Michael- Houston- New York- 1980, The Nikonian Chronicle: Volume Four: From the Year 1382 to the Year 1425, Translated by- Serge (A.) and Betty Jean Zenkovsky- Princeton- New Jersey- 1989, PP. 53-70; Kovalevsky –P-, Saint-Serge et la Spiritualité Russe- édition du Seuil- Paris-S/D, PP. 60-62.

على قشرات البتولة شرط، مع ذلك، أن تكون الأحرف منقوشة وليس مكتوبة بالحبر، هذه الأخيرة غير مقاومة للرطوبة. لهذا السبب، فإن الوثائق المكتوبة بالحبر قليلة (...).

وفي الوقت كان فيه أرسيخوفسكج وفريقه ينقبّون في باطن أرض نفجرود، فإن وثائق منقوشة على قشرة البتولة قد تم اكتشافها في مدن أخرى بالجزء الغربي في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية: واحدة في سمولنسك Smolensk، واحدة في فتبسك Vitebsk، وثيقتان في بسكوف[3] Pskov.

بصفة عامة، فإن أرسخوسفكج وأغلب زملائه السوفيات، (...) يعتبرون بأن اكتشاف كتابات على قشرة البتولة، ما فتئت تبدأ وأنها قادرة على أن تحمل مساهمة ثمينة لتاريخ كل البلدان أين كانت البتولة منتشرة بكثرة (اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، الدول الاسكندنافية، بريطانيا العظمى، كندا، شمال الولايات المتحدّة الأمريكية، وغيرها...)

إن المظهر الخارجي لوثائق نفجرود تختلف بوضوح عن هذه الأوراق التي تحفظها مكتباتنا. إنها تعرض غالبا في شكل قطع للقشرة ملفوفة، من 10 إلى 30 سم في الطول، 2 إلى 10 سم في العرض –تقريبا– وبعض الملمترات في السمك. الطبقة الخارجية منزوعة بخشونة كفاية، بحيث كتب من الأفضل على الوجه الداخلي، على الرغم من أنها كانت داكنة بشكل كبير. إن الوثائق المكتوبة على ظهري الوثيقة. نادرة (الأرقام 2، 22، 121، 131، 162على سبيل المثال).

نجهل طرق تحضير الدعامات. من المحتمل أن القشرة كانت تخضع للمعالجة بالبخار أو بالماء المغلي، الطريقة التي تتبع لحد الآن لدى بعض الشعوب السيبريا في القرن الماضي، ما يجعلها أكثر نعومة وأكثر ليونة.

وكخلاصة يمكننا أن نؤكّد بأن الوثائق على قشرة البتولة قد تم تحريريها في نفس لغة المواثيق على الرق وعلى الورق (...) إن الفرق بين المواثيق والكتابات على قشرة البتولة برز في الاختلاف بين محتواها على التوالي. إن مادة هذه الأخيرة متنوّعة كثيرا، في حين أن الوثائق الدبلوماسية، التي تستجيب لمتطلبات قانونية محدّدة، قد استعملت منذ فترة مبكّرة جدّا صيغة صارمة.

2. محتويات الوثائق على قشرة البتولة

يبقى لنا الآن أن عرض تحليل محتوى الوثائق. على مجموع أربعمائة وأربعة وعشرين قشرة البتولة –أغلبها يعود للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين– التي عثر عليها أرسيخوفسكج، فإن ربعها يتكون من مقاطع قصيرة جدّا حتى تكون خاضعة للتحليل ما عدا نحو خمسون قطعة محفوظة –تقريبا– كاملة، الأخرى، فإنها تعتبر مقاطع –تقريبا– مبتورة سواء عرضا أم، رأينا ذلك، إداريا.(...)

إن أوّل ميزة لمجموع هذه الوثائق هي التنوّع. هذا المعلم يعود في الواقع، كما تم الإشارة إليه، إلى أن الأمر يتعلّق بوثائق محفوظة بالصدفة ولا يتعلق الأمر بوثائق أرشيفية.

---

[3]– تقع بسكوف Pskov أو Obskov غرب نفجرود العظمى. تشتهر هذه الإمارة بأنهارها وبحيراتها الكثيرة، إضافة إلى غطاء غابي كثيف. تعرف بتجارتها الرائجة. زيادة على ذلك فإن هذه الإمارة غنية بإنتاج زراعي متنوّع بالخصوص، مادة القمح ليس هذا فحسب، بل إن سكانها يتقنون حرفا مختلفة منها صناعة الأسلحة.أنظر:

Grey –Ian- Ivan III and the Unification of Russia- The English Universities- L.T.D. S/D, PP. 59-61.

مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

المجلد 08 / العـدد: 01افريل (2024)، ص ص.91- .101

من أجل سهولة العرض سنحاول ترتيب الوثائق في عدة أصناف(...)

1- الكتابات التي تعنى بالحياة الروحية أو الفكرية، بالخصوص الوثائق المدرسية. هذا الصنف شحيح،

2- الوثائق التي تعدّ صدى لأحداث سياسية أو تروي نشاطا عسكريا. هي أيضا قليلة،

3- شهادات عن الحياة الشخصية للأفراد، الوثائق الخاصة بالشؤون اليومية، البعض يبدو أنها تتجاوز هذا الإطار وتعكس بالأحرى تجارة متخصصة. نصوص هذا الصنف، عددها كبير كفاية، تحتوي أحيانا على تفاصيل مثيرة،

4- الوثائق التي تشهد عن الروابط بين أسياد الأراضي المقيمين في نفجرود والفلاّحين التابعين لهم. هذه المجموعة، المهمّة عدديا، تقدّم اسهاما ثمينا للتاريخ الاجتماعي،

5- الوثائق المالية: أوامر بالدفع، قائمة بأسماء المدينيين أو أدوات تركت كرهن(...)

إن السياسة الخارجية، في أغلب الأحيان الميالة للحرب "لنفجرود العظيم "Novgorod le Grand" قد تجد بعض الصدى في الكتابات على قشرة البتولة. الوثيقة رقم 69 (أواخر القرن 13م). تصف الحملة على الفولجا .Volga في الرسالة رقم 332 (بداية القرن 13م)، عسكري يطلب بأن يرسل له سلاحه. الرقمين 248 و249 يتضمنان عرائض قريتين كارليتين Carélieus تعرّضتا لهجوم من السويديين، وفي ثناياها تم طلب المساعدة من جمهورية نفجرود. يمكن أن يتعلق الأمر في الوثيقة رقم 248 بهجوم عام 1396م، الذي تم الإشارة إليه في المصادر الإخبارية.

في النص رقم 286 (منتصف القرن 14م) يتعلق الأمر بهدنة من الصعب التعرف إليها بدقة.

أخيرا، إن الفرضية التي من خلالها يكون الرقم 298 (منتصف القرن 15م) عبارة عن ورقة انتخاب في الفيشي Vece (مجلس سكان نفجرود) مهم، نتمنى أن التنقيبات اللاحقة تسمح بإثبات ذلك .

كمية هامة من الوثائق تخص الحياة الخاصة للنفجروديين.(...)

النص رقم 415 (القرن الرابع عشر الميلادي) يكشف عن طبائع أيضا أكثر فضاضة وخشونة: "ففرونجا Fevronja تحيي، باكية، فليكس .Félix زوج ابنتي ضربني وطردني من البيت. هل تأمرني بالمجيء إلى المدينة أم ستأتي بنفسك إلى هنا؟ لقد تمّ ضربي." الرقم 49 (النصف الثاني من القرن 14م) فإنه إخبار مقتضب بالوفاة: "تحيّة من أناستازيAnastasie . لأسيادي، إخوتي. لقد فقدت بوريس .Boris كيف تعتزمون مساعدتي، أنا وأبنائي؟."

(...)فيما يخص طلب للزواج، خلال نهاية القرن 13م، المتضمّن في الرقم 377: "من قبل نسيتاس Nicétas لجوليان .Julienneتزوّجني. أرغب فيك وأنت ترغبين في. إنياس شاهد على ذلك(...) ".

واحدة من آخر الوثائق التي صدرت تبدو لنا مهمة بوجه خاص:" من قبل ... لوالده ووالدته. بعدما قمتم ببيع منزلكم، لتأتوا إلى هنا، إلى سمولنسك أو إلى كييف. الخبز رخيص وإن لن تذهبوا، ارسلوا إلي رسالة لتخبروني إن كنتم في صحة جيّدة." (رقم 424، للقرن 12م [؟]).

ولكن عموما، فإن المسائل التطبيقية للحياة اليومية كانت تحتل مجموع الرسالة. تارة فإن زوجا يطلب من زوجته أن ترسل إليه ملابس داخلية للتبديل (رقم 43 حوالي 1400م)، طورا آخر يخبر زوجته بما سرق منه العلف الذي قام بحصده (رقم 53، منتصف القرن 14م)... في الرسالة رقم 125 (حوالي عام 1400م) أم تطلب من ابنها بأن يشتري لها قطنية. مرسل الرسالة رقم 129 (حوالي عام 1400م) يطلب من شقيقه بأن يبعث له العسل، الشمع وجلد حمل، مرسل الرسالة رقم 144 (بداية القرن 14م) يعطي أمرا لمراسله بشراء السمك، مرسل الرسالة رقم 173 (ق.14-15م) يطلب بأن يرسل إليه مادة الزيت (...)

بتجاوز الإطار الذي تشكّله العائلة، نجد بعض الوثائق لها صلة بالتجارة، أحيانا بالتجارة المتخصصة، إذا نصين، رقم 92 (منتصف القرن 14م) ورقم 186 (النصف الثاني من القرن 14م)، تخص تجارة السمك. المكتوب رقم 420 (القرن 14م) يحتوي تعليمات حول بيع القنادس (Castors) (...)

في حين أن الزراعة والروابط الاجتماعية التي ترتبط بها تحتل في الوثائق على قشرة البتولة مكانة أكثر أهمية من التجارة.

إن بطرقة –طبقة الأشراف– نفجرود كانت مشكّلة أساسا من أسياد الذين يملكون أراضي تقريبا بعيدة يسيّرها أمناء .(Kluchniki) إن الكتابات على قشرة البتولة تضم مراسلة وافرة بين الأسياد من جهة، الفلاّحين والأمناء من جهة أخرى.

(...)نتوقف مطوّلا أكثر عند العرائض الموّجهة للسيّد من طرف الفلاّحين أو أحيانا الأمين الذي جعل نفسه آنذاك الناطق رعيته. هذه الوثائق، والتي لا يوجد معادل لها على الرّق، هي تعد خصوصا هامة (...) إنها توّضح معارفنا عن الروابط بين الفلاّحين وأسيادهم خلال أواخر القرن 14م والقرن 15م، بمعنى في الفترة التي توافق الرّق التدريجي للفلاحين.

مرة أخرى نترك النصوص تتحدث بنفسها:

الرقم 242 (بداية القرن 15م): "عريضة لكوزج Kosej والمزارعين. البعض يملكون أحصنة، لكنها سيئة. آخرون لا يملكون قط"(...)

الرقم 167 (أواخر القرن 14م) يحتوي عريضة طّحان –من الطاحون– الذي كان يخشى أن يطرد.

في وثيقة أخرى (رقم 311 حوالي عام 1400م)، الفلاّحون يشتكون من أنّهم منحوا لسيد آخر:" لسيّدنا ميخائيل جورجفش Michel Jurjevic:فلاحو شرنشك؟ Cerensk يقدّمون لك عريضة، هم الذين قدّمت القرية لكليمونت أوبارين .Clément Oparin لا نريد ذلك. إنه ليس رجلا من المنطقة. إنه يتصرّف بشكل تعسفي معنا(...) ".

إذا كان بعض الأمناء يتخذون صف الفلاّحين، فإن آخرين كانوا موضوع الشكاوى التي يتقدم بها هؤلاء للسيّد، مثلا في الرقم 94 (حوالي 1400) لسوء الحظ مبتورا أو الرقم 370 (النصف الثاني من القرن 14م) المحفوظ بشكل: "تحية لجورج Georges وماكسيم Maxime من قبل كل الفلاّحين (لم يذكر اسم الموقع). ما هذا الأمين الذي أعطيتنا؟ إنه لا يدافع عنّا، يبيعنا، يسرقنا. إننا مقيّدون؟ بسببه، إنه يمنع كل الإنصرافات بسببه، نحن نهلك إن بقي، فلن تكون لنا القوّة للبقاء. عن هذا الموضوع، نتوسل إليك."

المكتوب رقم 307 (النصف الأوّل من القرن 15م) يحتوي شكوى ذات طابع خاص: "لسيّدنا أندريه ميخايلوفش André Mikhailovic، لسّيدنا نيتاس ميخايلوفشNicétas Mikhailovic ، لسّيدتنا أنستازي ميخايلوفنا Anastasie

Mikhailovna، فلاحي إسبويشا Isboisca يتقدمون بعريضة. هنا أيّها الأسياد، على أرضنا في جرودنجا Gorodnja يظهر محضرين بالروسية(Pozovniki) ، محضرين مزيفين يظهرون هنا، وهنا تظهر مواثيق مزيفة. وتحرر وثائق مزيفة على أملاككم (؟). هناك كاتب موثق بالروسية (D'jak) مع المحضرين وتصنع مواثيق مزيفة. هو (الكاتب الموثق؟) بصم خاتمه. وهناك أيضا مواثيق (مزيفة؟) في بارفينو .Parfino وإن فلاحيكم، يتوسلون إليّكم، أنتم، أسيادهم." هذا النص، على الرغم من بعض الغموض، فإنه يهم لأعلى مستوى، تاريخ العقد المكتوب (...)

صنف آخر من الوثائق يحمل اسهاما ثمينا لتاريخ الروابط بين الأسياد أصحاب الأراضي وفلاحيهم. قوائم المرتبات عينا ونقدا. الأرقام 50 (النصف الثاني من القرن 14م؟)، 161و 162 (النصف الأوّل من القرن 15م)، 348 (النصف الثاني من القرن 13م)، 403 (القرن 14م) (...). إن الكتابات التي قمنا بمعالجتها تبين أنه، حتى فترة ظهور الورق، فإن قشرة البتولة كانت في نفجرود المادة الشخصية الرئيسية. كانت تستعمل بشكل واسع في الكتابات الرسمية.

3. آراء مختلفة لتحديد مستوى التعليم في روسيا خلال العصور الوسطى

لقد أشار أرسيخوفسكج وعدد كبير آخر من المؤرخين السوفيات في العديد من المرّات إلى أهمية اكتشاف الكتابات على قشرة البتولة بالنسبة لتاريخ التعليم[4] في نفجرود (...)

بشكل عام، إنه (...) سابق لأوانه الاستنتاج، من خلال العناصر التي بحوزتنا حاليا، بأن –تقريبا– كل السكان كانوا يعرفون القراءة والكتابة. اعتراضات يبدو أنها قدّمت في هذا الاتجاه لأرسيخوفسكج، خلال مؤتمر ستوكهولم Stockholm من طرف لوبيز (ر.ب) Lopez (R.P) من جامعة يال Yale.

على العموم، فإننا أخبرنا بشكل سيء جدّا بالمسائل المتعلقة بالتعليم والثقافة في روسيا خلال العصور الوسطى. إن سير القديسين تتحدّث عن المدارس، لكن بشكل غامض جدّا (...)

لكن ذكر أرسيخوفسكج صوابا في الرسالة التقوية الشهيرة لجوناد[5] Gennade (مطران نفجرود من 1484 إلى 1504م، توفي عام 1506م)، التي من خلالها عرض هذا الأخير على متروبوليت موسكو، شمعون Siméon، شكاويه عن نقص التعليم لدى المرّشحين للقسوسة المجنّدين في نفجرود (...)

---

[4]– من الملاحظ أن عدد الرسائل المكتوبة علة قشرة البتولة والتي تعنى بالمسائل ذات الطابع التجاري والمالي، كان أكبر من غيره من الأصناف الأخرى، ممّا يدل على أن الكتابة كانت أداة ضرورية بالنسبة لطبقة التجار في روسيا خلال فترة العصور الوسطى. إضافة إلى ذلك، كان لانتشار المسيحية في روسيا مع أواخر القرن العشر الميلادي أكبر الأثر في الكتابة في البلاد. زيادة على ذلك، فإن التعليم والكتابة لم يكن أمرا مقتصرا على الشبان فقط، بل إن النساء أيضا حصلن على نصيبهن في هذا المجال فمثلا حدث حوالي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي أن قامت أميرة منطقة بلوتسك Polotsk بنسخ كتب طقسية، ومن جهتها فإن ابنة فسيفولود Vsévolod وهو أمير فلاديمير وسوضداليا Vladimir et Seuzdalie، قد تبادلت الرسائل مع شمعون Simon أسقف مدينة فلاديمير. أنظر:
Poppé –André– « dans la Russie médiévale Xe, XIIIe siècles, écriture et culture. Annales économies, Sociétés, civilisations, –janv–Fév– 1961–(PP. 12–34)– PP.13, 17–18.26,

[5]– يكتب أيضا Guénnady Gonsov ، يعد من أبرز مطارنة Archevêque كنيسة نفجرود العظمى. نال التعين في هذا المنصب الديني الهام من يد الأمير العظيم لموسكو، إيفان الثالث يوم 12 ديسمبر عام 1484م. كان جوناد يشغل قبل هذا اليوم مرتبة أرشمندريت Archimandrite– وهو منصب ديني في الكنيسة الأرثوذكسية يأتي في المركز الثاني بعد المطران– دير شودوف.أنظر:
Fenell -I.J.L.- Ivan the Great of Moscow- London and New York- 1961. P 57

يوّضح أرسخوفسكج هذا التناقض الظاهر بأن الأمر بالنسبة لجوناد أنه تحدّث بالخصوص عن سكان الريف (...)

زيادة على ذلك، فقد حدّث هناك ضعف في التعليم بروسيا مع أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م، كما يبدو توضيحه من خلال مقطع لقرارات مجمع وطني عقدت أشغاله في موسكو عام 1551م، المسمّى "مجمع ستوجلاف Stoglav"، "في ما مضى، في مملكة روسيا، في موسكو، في نفجرود العظيم، في قرى أخرى كذلك، كان هناك عدد من المدارس حيث كان يعلم كيفية الكتابة، كيفية الإنشاد، كيفية القراءة. كان لدينا حينئذ منشّدين، قراء، نقال، نساخ: كانوا مشهورين في كل البلاد وما زلنا نتذكرهم" (...)

في الواقع، فإن جوناد لم يقل في أي موضع بأن المرّشحين للكهنوتية كانوا أميين بالكامل، على العكس، نعلم بأن هؤلاء الرجال كانوا يرددون النصوص المقدسة. لم يقل بأن المدارس لم تكن موجودة، لكنه يشتكي من سطحية التعليم الذي كان يقدّم فيها(...)

جوناد يلوم الكهنة المستقبليين، ليس بأن يكونوا كليّة أميين، لكن كونهم غير قادرين على إقامة كما يجب القدّاس عن جهل باللّغة الطقسية –السلافونية Slavon– وقوانين الفرض الكنسي (...)

- **خاتمة:**

هكذا نخلص في آخر هذه الدراسة إلى القول بأن الاكتشاف الهام لعام 1951م، الذي قام به الفريق الأثري الروسي يعد بحق اسهاما حقيقيا وفير مسبوق في مجال الكتابة التاريخية في بلاد الروس.

لقد أخرج هؤلاء الأثريون إلى النور عددا معتبرا من الوثائق المكتوبة على قشرة البتولة والتي تعد مادة مصدرية لا غبار عليها.

وعقب هذا الاكتشاف الرائد، عكف الباحثون على دراسة المضامين المتنوعة لهذه الوثائق. إذ تبيّن بأنها تحمل مادة خام تفوق أهميتها كل التوّقعات. تضّمنت الوثائق على قشرة البتولة مواضيع مختلفة منها تلك ذات الطابع السياسي وأخرى اجتماعي، اقتصادي، إضافة إلى ذلك، شغلت الوثائق التي تمس جانب السياسة الخارجية حيّزها أيضا.

جدير القول أيضا أن هذا الاكتشاف الهام، قد تعدّت أهميته جانب المضمون فحسب، إنها أمدّتنا بصورة لا تزال تحتاج إلى وضوح أكثر عن مستوى التعليم المنتشر في روسيا خلال فتة العصور الوسطى.

جدير القول أن علم الآثار من الدعائم الأساسية التي ستغذي المدرسة التاريخية في روسيا بالمزيد من المادة التاريخية الخام التي عجز الباحثون عن ايجادها في الحقول البحثية الأخرى.

الهوامش:

- العنوان الأصلي لهذه الدراسة هو:

Les documents sur écorce de bouleau de Novgorod

لصاحبه المؤرخ فلاديمير فودوف Wladimir Vodoff أحد قامات تاريخ روسيا في العصر الوسيط.

مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

المجلد 08 / العـدد: 01افريل (2024)، ص ص.91- .101

تم نشرها في:

Journal des Savants, Paris, Klincksiech (c), Octobre- Decembre, 1966, (PP. 193- 233)

وقد أشار صاحب هذه الدراسة في الصفحة 193 حاشية *، أن في الوقت الذي فيه مقاله تحت الطبع، تزامن ذلك بحدث هام تمثّل في قيام رئيس مجلس الوزراء للاتحاد السوفياتي بزيارة رسمية إلى فرنسا. قام خلالها بتقديم هدية ثمينة لجامعة باريس وذلك بتاريخ 3 ديسمبر عام 1966م، تمثلت في الوثيقة رقم 266 مكتوبة على قشرة البتولة (تعود إلى النصف الثاني من القرن 14م). إن الأمر يتعلق بقطعة من رسالة تخص المسائل المنزلية، وقد جاء الحديث فيها بالخصوص عن حصان، كان من الضروري منحه يوميا كمية مادة الخرطال.

1. أسسه الراهب سيرج من رادوناج Serge de Radonége.

اسمه المدني بارثولمي Bartholémy – يعد أحد ألمع الشخصيات الدينية في روسيا خلال القرن الرابع عشر الميلادي. يرجح أن تاريخ ميلاده كان بين 1314و 1322م، أما وفاته فكانت يوم 25 سبتمبر عام 1392م. ينتمي سيرج إلى أسرة ثرية تقيم في إمارة روستوف Rostov والده مالك لأراضي شاسعة اشتهرت بإنتاج مادة الملح. ارتبط اسم سيرج بأحد أبرز الأديرة في روسيا واسمه "الثالوث المقدس للقديس سيرج" La trinité Saint-Serge الواقع شمالي–شرق موسكو على بعد سبعين أو ثمانين كيلومترا منها. وإن أهم المبادئ التي قام على أساسها هذا الدير هو الخضوع التام لمقدّم الدير، وإقرار الملكية الجماعية للرهبان.

أنظر:

The vita of St. Sergii of Rondongh, translation, introduction, notes by -Klimenko Michael- Houston- New York- 1980, The Nikonian Chronicle: Volume Four: From the Year 1382 to the Year 1425, Translated by-Serge (A.) and Betty Jean Zenkovsky- Princeton- New Jersey- 1989, PP. 53-70; Kovalevsky –P-, Saint-Serge et la Spiritualité Russe- édition du Seuil- Paris-S/D, PP. 60-62.

2. نفجرود العظمى Novogrod– La–Grande، تعد من أكبر إمارة في وسيا، تقع غرب موسكو. بالنسبة للسكان المحليين، فإن اسم نفجرود يعني "المدينة الجديدة" أو " القلعة الجديدة". يعبر نفجرود العظمى نهر هام يسّمى الفولخوف Volkhov وهو صالح للملاحة. تنقسم المدينة إلى خمسة أقسام، يخضع كل واحد منها لحكم قاض. عرفت هذه المدينة بتجارة رائجة، لذلك فإنها استقطبت تجارا من مختلف أرجاء أوروبا منها: لتوانيا، بولونيا، السويد، الدانمارك، ألمانيا وغيرها من الأصقاع الأخرى. ومن المناطق التابعة لنفجرود العظمى نذكر بالخصوص دفينا Dvina وفلوشدا Vlochda، اللتين اشتهرتا بوفرة مادة الفرو بها وكذا العسل، الشمع، إضافة إلى ثروة سميكة هائلة. ولأهمية هذه المدينة، فقد ضمّها أمير موسكو العظيم إيفان الثالث Ivan III (1462–1505م) لملكه. في شهر جويليا عام 1471م لينهي بذلك استقلالهما. وكان لهذا الانجاز الباهر الذي حققه إيفان الثالث نتائج حاسمة على المستقبل السياسي لموسكو، إذ اضافة إلى توسيع رقعة موسكو وارتفاع مستواها الاقتصادي، فإن إيفان الثالث تمكن بعد ضم نفجرود العظمى من صبّ جل اهتمامه للتوسيع في المجال البلطيقي الواسع. أنظر:

La Moscovie du XVIe Siècle vue par un ambassadeur occidental Herberstein. Presentation et traduction de Robert Delort- Calmann- Lévy- Paris- 1965,PP. 120-121; The Nikonian Chronicle : volume Five : from the year 1425 to the year 1520, Translated by- Serge (A.) and Betty Jean Zenkovsky- Princeton- New Jersey- 1989- PP. 134-137; The chronicle of

Novogrod (1016-1471)m Translated by Mitchell (Robert) and Forbes-(Nevill),London: Royal Historical Society, London, 1914, P. 214.

3. يكتب أيضا Guénnady Gonsov ، يعد من أبرز مطارنة Archevêque كنيسة نفجرود العظمى. نال التعين في هذا المنصب الديني الهام من يد الأمير العظيم لموسكو، إيفان الثالث يوم 12 ديسمبر عام 1484م. كان جوناد يشغل قبل هذا اليوم مرتبة أرشمندريت Archimandrite– وهو منصب ديني في الكنيسة الأرثوذكسية يأتي في المركز الثاني بعد المطران– دير شودوف. أنظر:

Fenell -I.J.L.- Ivan the Great of Moscow- London and New York- 1961. P 57

4. تقع بسكوف Pskov أو Obskov غرب نفجرود العظمى. تشتهر هذه الإمارة بأنهارها وبحيراتها الكثيرة، إضافة إلى غطاء غابي كثيف. تعرف بتجارتها الرائجة. زيادة على ذلك فإن هذه الإمارة غنية بإنتاج زراعي متنوّع بالخصوص، مادة القمح ليس هذا فحسب، بل إن سكانها يتقنون حرفا مختلفة منها صناعة الأسلحة. أنظر:

Grey –Ian- Ivan III and the Unification of Russia- The English Universities- L.T.D. S/D, PP. 59-61.

5. من الملاحظ أن عدد الرسائل المكتوبة علة قشرة البتولة والتي تعنى بالمسائل ذات الطابع التجاري والمالي، كان أكبر من غيره من الأصناف الأخرى، ممّا يدل على أن الكتابة كانت أداة ضرورية بالنسبة لطبقة التجار في روسيا خلال فترة العصور الوسطى. إضافة إلى ذلك، كان لانتشار المسيحية في روسيا مع أواخر القرن العشر الميلادي أكبر الأثر في الكتابة في البلاد. زيادة على ذلك، فإن التعليم والكتابة لم يكن أمرا مقتصرا على الشبان فقط، بل إن النساء أيضا حصلن على نصيبهن في هذا المجال فمثلا حدث حوالي منتصف القرن الثاني عشر الميلادي أن قامت أميرة منطقة بلوتسك Polotsk بنسخ كتب طقسية، ومن جهتها فإن ابنة فسيفولود Vsévolod وهو أمير فلاديمير وسوضداليا Vladimir et Seuzdalie، قد تبادلت الرسائل مع شمعون Simon أسقف مدينة فلاديمير. أنظر:

Poppé –André- « dans la Russie médiévale Xe, XIIIe siècles, écriture et culture. Annales économies, Sociétés, civilisations, janv-Fév- 1961-(PP.12-34). PP.13, 17-18,26.

6. اسمه باللغة اللاتينية كناووس بومبيوس Cnneus Pompeius Magnus الملقب بالعظيم Magnus، ولد عام 106 ق.م وتوفي في مدينة بلوز Péluse – الواقعة في مصر عام 48ق.م– قائدا ورجل دولة روماني شهير وقف بومبي إلى جانب سيلا Sylla في حربه ضد ماريوس Marius، ونظير خدماته كافأه بمنحه لقب "العظيم". قام بومبي عام 77ق.م حربا ضاربة في اسبانيا ضد القائد المتمرّد سوتوريوس Sertorius، وقد تمكّن بومبي من إحراز النصر عليه، ليعيد عقب ذلك إقرار الأمن والاستقرار في المنطقة. لم يتوقف هذا القائد الروماني عند هذا الحد،بل إنه حقق انتصارا باهرا آخر عام 73ق.م على الملك مثردات السادسMithridate VI الذي كان قد بسط نفوذه في منطقة آسيا الصغرى، وعقب هزيمة هذا الأخير، لجأ إلى منطقة القرم وتوفي هناك عام 63ق.م.

وبفضل هذه المكاسب، تمكّن بومبي من توسيع حدود الأراضي الرومانية إبان العهد الجمهوري، إضافة إلى ذلك عمل جاهدا على زيادة مداخيل الدولة. أنظر:

Monnier –Jean- Pacaut –Marcel- histoire. Rome- le Moyen-Age jusqu'au XIVe siècle- Fernand Nathan- S/D- PP 80/81

S-Carre –Chris- Atlas de la Rome antique 800 av.J.- C., 540 apr. J.-C, édition Autrement- 1995, PP18-19,28, 32 32. .